- ٨ -

جمع القرآن وترتيبه

يُطلق جمع القرآن ويُراد به عند العلماء أحد معنيين :

المعنى الأول : جمعه بمعنى حفظه ، وجماع القرآن : حفاظه ، وهذا المعنى هو الذى ورد فى قوله تعالى فى خطابه لنبيه ﷺ ، وقد كان يُحرِّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحى حرصاً على أن يحفظه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (١) ، عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يُحَرِّك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال : يقول إن علينا أن نجمعه فى صدرك ، ثم نقرأه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ يقول : إذا أنزلناه عليك : ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أن نبينه بلسانك ، وفى لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق - وفى لفظ : استمع - فإذا ذهب قرأه كما وعد الله (١) .

المعنى الثانى : جمع القرآن بمعنى كتابته كله ، مفرَّق الآيات والسور ، أو مرتب الآيات فقط ، وكل سورة ، فى صحيفة على حدة ، أو مرتب الآيات والسور فى صحائف مجتمعة تضم السور جميعًا وقد رُتِبَ إحداها بعد الأخرى .

١ - (أ) جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبى ﷺ :

كان رسول الله ﷺ مولعًا بالوحى ، يترقب نزوله عليه بشوق ، فيحفظه ويفهمه، مصدقًا لوعد الله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٣) فكان بذلك أول

(١) القيامة : ١٦ - ١٩

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، عن ابن عباس .   (٣) القيامة : ١٧

الحُفَّاظ ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة ، شغفًا بأصل الدين ومصدر الرسالة ، وقد نزل القرآن فى بضع وعشرين سنة ، فربما نزلت الآية المفردة ، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر ، وكلما نزلت آية حُفِظت فى الصدور ، ووعتها القلوب ، والأمة العربية كانت بسجيتها قوية الذاكرة ، تستعيض عن أميتها فى كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها .

وقد أورد البخارى فى صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفَّاظ ، هم : عبد الله ابن مسعود ، وسالم بن معقل مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد بن السكن ، وأبو الدرداء .

١ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأُبَىّ بن كعب » (١) وهؤلاء الأربعة : اثنان من المهاجرين هما : عبد الله بن مسعود وسالم ، واثنان من الأنصار هما : معاذ وأُبَىّ .

٢ - وعن قتادة قال : « سألتُ أنس بن مالك : مَن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أربعة ، كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ ابن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قلت : مَن أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى » (٢) .

٣ - ورُوِىَ من طريق ثابت عن أنس كذلك قال : « مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » (٣) .

وأبو زيد المذكور فى هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإسناد على شرط البخارى عن أنس : أن أبا زيد الذى جمع القرآن اسمه : قيس بن السكن ، قال : وكان رجلاً منا من بنى عدى بن النجار أحد عمومتى ، ومات ولم يدع عقبًا ونحن ورثناه .

---

(١) رواه البخارى . (٢) رواه البخارى . (٣) رواه البخارى .

وبيَّن ابن حجر فى ترجمة سعيد بن عبيد أنه من الحفَّاظ ، وأنه كان يُلقَّب بالقارئ (١) .

وذكر هؤلاء الحفَّاظ السبعة ، أو الثمانية ، لا يعنى الحصر ، فإن النصوص الواردة فى كتب السير والسُنَن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون فى حفظ القرآن ، ويُحَفِّظونه أزواجهم وأولادهم ، ويقرأون به فى صلواتهم بجوف اللَّيل ، حتى يُسمع لهم دوى كدوىٍّ النحل ، وكان رسول الله ﷺ يمر على بيوت الأنصار ، ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقراءة فى بيوتهم ، عن أبى موسى الأشعرى : « أن رسول الله ﷺ قال له : لو رأيتنى البارحة وأنا أستمع لقراءتك ؟ لقد أعطِيتَ مزماراً من مزامير داود » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : « جمعتُ القرآن ، فقرأتُ به كل ليلة ، فبلغ النبى ﷺ فقال : اقرأه فى شهر » (٣) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : إنى لأعرف رفقة الأشعريين باللَّيل حين يدخلون ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن باللَّيل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » (٤) .

ومع حرص الصحابة على مدارسة القرآن واستظهاره فإن رسول الله ﷺ كان يشجعهم على ذلك ، ويختار لهم مَن يعلمهم القرآن ، عن عبادة بن الصامت قال : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبى ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » (٥) .

فهذا الحصر للسبعة المذكورين من البخارى بالروايات الثلاث الآنفة الذكر محمول

---

(١) « الإصابة » (٢/ ٢٨) .

(٢) رواه البخارى ، وفى رواية لمسلم بزيادة : « فقلت : لو علمتُ والله يا رسول الله أنك تسمع لقراءتى لحبَّرته لك تحبيراً » .

(٣) أخرجه النسائى بسند صحيح .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

(٥) « مناهل العرفان » للزرقانى (١/ ٢٣٤) .

على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله فى صدورهم ، وعرضوه على النبى ﷺ ، واتصلت بنا أسانيدهم ، أما غيرهم من حفظة القرآن - وهم كثر - فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها ، لا سيما وأن الصحابة تفرَّقوا فى الأمصار ، وحفظ بعضهم عن بعض ، ويكفىْ دليلاً على ذلك أن الذين قُتلوا فى بئر معونة من الصحابة كان يُقال لهم القُرَّاء ، وكانوا سبعين رجلاً كما فى الصحيح ، قال القرطبى : « قد قُتِلَ يوم اليمامة سبعون من القُرَّاء - وقُتِلَ فى عهد النبى ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد » وهذا هو ما فهمه العلماء وأوَّلوا به الأحاديث الدالة على حصر الحُفَّاظ فى السبعة المذكورين ، قال الماوردى (١) معلقًا على رواية أنس : « لم يجمع القرآن غير أربعة » : « لا يلزم من قول أنس : لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع فى نفس الأمر كذلك ، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه ، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد وهذا لا يتم إلا إن كان لقى كل واحد منهم على انفراده ، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع فى عهد النبى ﷺ ، وهذا فى غاية البُعد فى العادة ، وإذا كان المرجع إلى ما فى علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى » (٢) .

والماوردى بهذا ينفى الشبَه التى توهم قلة عدد الحُفَّاظ بأسلوب مقنع ، ويبيِّن الاحتمالات الممكنة لصيغة الحصر فى حديث أنس بيانًا شافيًا .

وقد ذكر أبو عبيد (٣) فى كتاب « القراءات » القُرَّاء من أصحاب النبى ﷺ فعدَّ من المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعدًا ، وابن مسعود ، وحذيفة ،

---

(١) هو أبو الحسن علىّ بن حبيب الشافعى ، صاحب كتاب « الأحكام السلطانية » ، وكتاب « أدب الدنيا والدين » توفى سنة ٤٥٠ هجرية .

(٢) يرد الماوردى بالفقرة الأخيرة على الملاحدة الذين يتمسكون برواية أنس الدالة على الحصر فى أن القرآن غير متواتر ، ونضيف إلى رد الماوردى عليهم أنه بجانب الحفظ كانت الكتابة كما سيأتى ، وانظر : « الإتقان » (١/ ٧٢) .

(٣) أبو عبيد : هو القاسم بن سلام الهروى الأزدى الخزاعى ، من أئمة الحديث واللُّغة ، صاحب كتاب « الأموال » المشهور ، توفى سنة ٢٢٤ هجرية .

وسالمًا ، وأبا هريرة ، وعبد الله بن السائب ، والعبادلة (١) ، وعائشة ، وحفصة ، وأُم سلمة ، ومن الأنصار : عبادة بن الصامت ، ومعاذًا الذى يُكَنَّى أبا حليمة ، ومجمع بن جارية ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مخلد ، وصرَّح بأن بعضهم إنما كمَّله بعد النبى ﷺ (٢) .

وذكر الحافظ الذهبى (٣) فى « طبقات القراء » أن هذا العدد من القُرَّاء هم الذين عرضوه على النبى ﷺ ، واتصلت بنا أسانيدهم ، وأما مَن جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير .

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن فى عهد الرسول ﷺ كانوا جمعًا غفيرًا ، فإن الاعتماد على الحفظ فى النقل من خصائص هذه الأمة ، قال ابن الجزرى (٤) شيخ القُرَّاء فى عصره : « إن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » .

(ب) جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول ﷺ :

اتخذ رسول الله ﷺ كُتَّابًا للوحى من أجلَّاء الصحابة ، كعلىّ ، ومعاوية ، وأُبَىّ ابن كعب ، وزيد بن ثابت ، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها ، حتى تُظاهِر الكتابة فى السطور ، الجمع فى الصدور ، كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم ، دون أن يأمرهم النبى ﷺ ، فيخطونه فى العسب ، واللِّخاف ، والكرانيف ، والرقاع ، والأقتاب ،

---

(١) العبادلة الأربعة المشهورون بالإفتاء هم : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

(٢) انظر : « الإتقان » (١/ ٧٢) .

(٣) اسمه محمد بن أحمد بن عثمان من كبار المحدِّثين فى القرن الثامن ، توفى سنة ٧٤٨ هجرية .

(٤) هو محمد بن محمد الشهير بابن الجزرى ، صاحب كتاب « النشر فى القراءات العشر » توفى سنة ٨٣٣ هجرية .

وقطع الأديم ، والأكتاف (١) ، عن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرقاع » (٢) .

وهذا يدل على مدى المشقة التى كان يتحملها الصحابة فى كتابة القرآن ، حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل ، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ .

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل سنة فى ليالى رمضان ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » (٣) .

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله ﷺ ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة كذلك .

ولم تكن هذه الكتابة فى عهد النبى ﷺ مجتمعة فى مصحف عام ، بل عند هذا ما ليس عند ذاك ، وقد نقل العلماء أن نفرًا منهم : علىّ بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود - قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ ، وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخرًا عن الجميع .

وقُبِضَ رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ فى الصدور ، ومكتوب فى الصحف على نحو ما سبق ، مفرَّق الآيات والسور ، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة فى صحيفة

---

(١) العسب : جمع عسيب ، وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض ، واللِّخاف : جمع لخفة ، وهى صفائح الحجارة ، والكرانيف : جمع كرنافة ، وهى أصول السعف الغلاظ ، والرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو رق ، والأقتاب : جمع قتب ، وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليُركب عليه ، والأكتاف : جمع كتف ، وهو العظم الذى للبعير أو الشاة ، كانوا إذا جف كتبوا عليه .

(٢) أخرجه الحاكم فى « المستدرك » بسند على شرط الشيخين ، نؤلِّف القرآن : أى نجمعه ، لترتيب آياته .

(٣) متفق عليه .

obeikandi.com

على حدة ، بالأحرف السبعة الواردة [١] ، ولم يُجمع فى مصحف عام ، حيث كان الوحى يتنزل تباعًا فيحفظه القرَّاء ، ويكتبه الكَتَبة ، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه فى مصحف واحد ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحى من حين لآخر ، وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل ، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تُكتب الآية بعد نزولها حيث يشير ﷺ إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا فى سورة كذا ، ولو جُمِعَ القرآن كله بين دفتى مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحى ، قال الزركشى : « وإنما لم يُكتب فى عهد النبى ﷺ مصحف لئلا يُفضى إلى تغييره فى كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ » وبهذا يُفسِّر ما رُوِىَ عن زيد بن ثابت ، قال : « قُبِضَ النبى ﷺ ولم يكن القرآن جُمِعَ فى شيء » ، أى لم يكن جُمِعَ مرتب الآيات والسور فى مصحف واحد ، قال الخطابى : « إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة [٢] فكان ابتداء ذلك على يد الصدِّيق بمشورة عمر » [٣] .

ويسمى هذا الجمع فى عهد النبى ﷺ : (أ) حفظًا . (ب) وكتابة : « الجمع الأول » .

* * *

٢ - جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه :

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، وواجهته أحداث جسام فى ارتداد جمهرة العرب ، فجهَّز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين ، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة تضم عددًا كبيرًا من الصحابة القُرَّاء ، فاستشهد فى هذه الغزوة سبعون قارئًا من الصحابة ، فهال ذلك عمر بن الخطاب ، ودخل على

---

(١) سيأتى بيان الأحرف السبعة .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .
(٣) انظر : « الإتقان » (١/ ٥٧) .

أبى بكر رضى الله عنه وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع ، فإن القتل قد استحر [1] يوم اليمامة بالقُرَّاء - ويُخشى إن استحر بهم فى المواطن الأخرى أن يضيع القرآن ويُنسَى ، فنفر أبو بكر من هذه المقالة وكبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ، وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبى بكر لهذا الأمر ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته فى القراءة والكتابة والفهم والعقل ، وشهوده العرضة الأخيرة ، وقصَّ عليه قول عمر - فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل ، وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة ، وبدأ زيد بن ثابت فى مهمته الشاقة معتمداً على المحفوظ فى صدور القُرَّاء ، والمكتوب لدى الكتبة ، وبقيت تلك الصحف عند أبى بكر ، حتى إذا توفى سنة ثلاث عشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر ، وظلت عنده حتى مات - ثم كانت عند حفصة ابنته صدراً من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة .

عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلىَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرَّاء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقرَّاء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أريد أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر - قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنتَ تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلَّفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعتُ القرآن أجمعه من العسب واللِّخاف وصدور الرجال ، ووجدتُ آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [2] حتى خاتمة براءة ، فكانت

---

(١) استحر : اشتد .

(٢) التوبة : ١٢٨

الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر »[1] .

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت ، فكان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة ، وقوله فى الحديث : « ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره » لا ينافى هذا ، ولا يعنى أنها ليست متواترة ، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره ، وكان زيد يحفظها ، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك ، لأن زيدًا كان يعتمد على الحفظ والكتابة معًا ، فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم ، ويشهدون بأنها كُتِبَت ، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبى خزيمة الأنصارى .

أخرج ابن أبى داود[2] من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، قال : « قدم عمر ، فقال : مَن كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شهيدان » ، وهذا يدل على أن زيدًا كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوبًا حتى يشهد به مَن تلَقَّاه سماعًا ، مع كون زيد كان يحفظ ، فكان يفعل ذلك مبالغة من الاحتياط ، وأخرج ابن أبى داود أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه : « أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدوا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه » ورجاله ثقات مع انقطاعه ، قال ابن حجر : « وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتاب » وقال السخاوى[3] فى « جمال القراء » : « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتِبَ بين يدى رسول الله ﷺ ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التى نزل بها القرآن » قال أبو شامة : « وكان

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدى السجستانى ، من كبار حفَّاظ الحديث ، له من الكتب : المصاحف ، والمسند ، والسنن ، والتفسير ، والقراءات ، والناسخ والمنسوخ - انظر « الأعلام » للزركلى (٤/ ٢٢٤) .

(٣) هو علىٌّ بن محمد بن عبد الصمد المشهور بالسخاوى ، له منظومة فى القراءات تُعرف بالسخاوية ، توفى سنة ٦٤٣ هجرية .

غرضهم أن لا يُكتب إلا من عين ما كُتِبَ بين يدى النبى ﷺ ، لا من مجرد الحفظ ، ولذلك قال فى آخر سورة التوبة : « لم أجدها مع غيره » أى لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة » (١) .

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوبًا من قبل فى عهد النبى ﷺ ، ولكنه كان مفرَّقًا فى الرقاع والأكتاف والعسب ، فأمر أبو بكر بجمعه فى مصحف واحد مرتب الآيات والسور وأن تكون كتابته غاية من التثبيت مشتملة على الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، فكان أبو بكر رضى الله عنه أول مَن جمع القرآن بهذه الصفة فى مصحف ، وإن وُجِدَت مصاحف فردية عند بعض الصحابة ، كمصحف علىّ ، ومصحف أُبَىّ ، ومصحف ابن مسعود ، فإنها لم تكن على هذا النحو ، ولم تنل حظها من التحرى والدقة ، والجمع والترتيب ، والاقتصار على ما لم تُنسخ تلاوته ، والإجماع عليها ، بمثل ما نال مصحف أبى بكر ، فهذه الخصائص تميَّز بها جمع أبى بكر للقرآن ، ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين فى عهد أبى بكر بهذا الجمع ، وعن علىّ قال : « أعظم الناس أجرًا فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول مَن جمع كتاب الله » .

وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثانى .

٣ - جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه :

اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وتفرَّق القُرَّاء فى الأمصار ، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته ، ووجوه القراء التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التى نزل عليها ، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف ، وقد يقنع بأنها جميعاً مسندة إلى رسول الله ﷺ ، ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناشئة التى لم تدرك الرسول ، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها ، وذلك يؤدى إلى الملاحاة إن استفاض أمره ومردوا عليه ، ثم إلى اللجاج والتأثيم ، وتلك فتنة لا بد لها من علاج .

---

(١) انظر « الإتقان » (١/ ٥٨) .

فلما كانت غزوة « أرمينية » وغزوة « أذربيجان » من أهل العراق ، كان فيمن غزاهما « حذيفة بن اليمان » فرأى اختلافًا كثيرًا فى وجوه القراءة ، وبعض ذلك مشوب باللَّحن ، مع إلف كل لقراءته ، ووقوفه عندها ، ومماراته مخالفة لغيره ، وتكفير بعضهم الآخر ، حينئذ فزع إلى عثمان رضى الله عنه ، وأخبره بما رأى ، وكان عثمان قد نمى إليه أن شيئاً من ذلك الخلاف يحدث لمن يُقرئون الصبية ، فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم ، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل ، وأجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التى كانت عند أبى بكر ، ويجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد ، فأرسل عثمان إلى حفصة ، فأرسلت إليه بتلك الصحف ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصارى ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين ، فأمرهم أن ينسخوها فى المصاحف ، وأن يُكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم .

عن أنس : « أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك - فأرسلت بها حفصة إلى عثمان - فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق، قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع

خزيمة بن ثابت الأنصارى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ (١) فألحقناها فى سورتها فى المصحف (٢) .

ودلت الآثار على أن الاختلاف فى وجوه القراءة لم يفزع منه حذيفة بن اليمان وحده ، بل شاركه غيره من الصحابة فى ذلك ، عن ابن جرير قال : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، قال : حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة ، قال : لما كان فى خلافة عثمان جعل المعلم يُعلِّم قراءة الرجل ، والمعلم يعلِّم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلِّمين - قال أيوب : فلا أعلمه إلا قال - حتى كفر بعضهم بقراءة بعض ، فبلغ ذلك عثمان ، فقام خطيبًا ، فقال : « أنتم عندى تختلفون فيه وتلحنون ، فمن نأى عنى من أهل الأمصار أشد فيه اختلافًا وأشد لحنًا ، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إمامًا» قال أبو قلابة : فحدثنى أنس بن مالك قال : كنت فيمن يُمْلَى عليهم ، قال : فربما اختلفوا فى الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله ﷺ ، ولعله أن يكون غائبًا فى بعض البوادى ، فيكتبون ما قبلها وما بعدها ، ويدعون موضعها ، حتى يجئ أو يرسل إليه ، فلما فرغ من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار : إنى قد صنعت كذا وكذا ، ومحوت ما عندى ، فامحوا ما عندكم (٣) .

وأخرج ابن أشتة (٤) من طريق أيوب عن أبى قلابة مثله ، وذكر ابن حجر فى الفتح أن ابن داود أخرجه فى المصاحف من طريق أبى قلابة .

وعن سويد بن غفلة قال : « قال علىّ : لا تقولوا فى عثمان إلا خيرًا ، فوالله ما فعل الذى فعل فى المصحف إلا عن ملأ منا . قال : ما تقولون فى هذه القراءة ؟

---

(١) الأحزاب : ٢٣ (٢) رواه البخارى .

(٣) انظر الجزء الأول من تفسير الطبرى ، تحقيق وتخريج الأخوين محمد محمد شاكر وأحمد محمد شاكر ، طبعة دار المعارف (ص٦١ - ٦٢) .

(٤) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أشتة ، من المحققين الثقات ، الذين اشتغلوا بعلوم القرآن ، توفى سنة ٣٦٠ هجرية .

قد بلغنى أن بعضهم يقول : إن قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفرًا ، قلنا : فما ترى ؟ قال : أرى أن يُجْمَعَ الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا : فَنِعْمَ ما رأيت » (١) .

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة ، كُتِبَت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، ليجتمع الناس على قراءة واحدة ، ورد عثمان الصحف إلى حفصة ، وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف ، واحتبس بالمدينة واحدًا هو مصحفه الذى يسمى الإمام ، وتسميته بذلك لما جاء فى بعض الروايات السابقة من قوله : « اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إمامًا » وأمر أن يُحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف ، وتلقت الأُمة ذلك بالطاعة ، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأُخرى ، ولا ضير فى ذلك ، فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة ، ولو أوجب رسول الله ﷺ على الأمة القراءة بها جميعاً لوجب نقل كل حرف منها نقلاً متواترًا تقوم به الحجة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة ، وأن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة ، وهذا هو كما كان .

قال ابن جرير فيما فعله عثمان : « وجمعهم على مصحف واحد ، وحرف واحد ، وخرق ما عدا المصحف الذى جمعهم عليه ، وعزم على كل مَن كان عنده مصحف « مخالف » المصحف الذى جمعهم عليه ، أن يحرقه (٢) ، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة التى عزم عليها إمامها العادل فى تركها ، طاعة منها له ، نظرًا منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها ، وتعفت آثارها ، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها ، لدثورها وعفو آثارها ،

(١) أخرجه ابن أبى داود بسند صحيح .

(٢) انظر هذا النص فى « تفسير ابن جرير الطبرى » (١/ ٦٤ - ٦٥) ، وفى التعليق ، قال ابن حجر فى « الفتح » (٩/ ١٨) فى « شرح حديث البخارى » : « فى رواية الأكثر « أن يخرق » بالخاء المعجمة ، وللمروزى بالمهملة ، ورواه الأصيلى بالوجهين ، والمعجمة أثبت ، وخرق الكتاب أو الثوب : شققه ومزقه .

وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها ، من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها ، ولكن نظرًا منها لأنفسها ولسائر أهل دينها ، فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح ، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعض مَن ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ ، وأمرهم بقراءتها ؟

قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورُخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضًا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة ، عند مَن يقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبره العذر ، ويزيل الشك من قرأة [1] الأمة ، وفى تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا فى القراءة بها مخيَّرين ، بعد أن يكون فى نقلة القرآن مَن الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة .

وإذا كان ذلك كذلك ، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع ، تاركين ما كان عليهم نقله ، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا ، إذ كان الذى فعلوا من ذلك ، كان هو النظر للإسلام وأهله ، فكان القيام بفعل الواجب عليهم، بهم أولى من فعل ما لو فعلوه ، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة ، من ذلك » .

* * *

● الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان :

يتبين من النصوص أن جمع أبى بكر يختلف عن جمع عثمان فى الباعث والكيفية .

فالباعث لدى أبى بكر رضى الله عنه لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته ، حين استحر القتل بالقُرَّاء .

---

(١) « من قرأة الأمة » . القرأة : جمع قارئ .

والباعث لدى عثمان رضى الله عنه كثرة الاختلاف فى وجوه القراءة ، حين شاهد هذا الاختلاف فى الأمصار وخطّأ بعضهم بعضًا .

وجمع أبى بكر للقرآن كان نقلاً لما كان مفرّقًا فى الرِقاع والأكتاف والعسب ، وجمعاً له فى مصحف واحد مرتب الآيات والسور ، مقتصراً على ما لم تُنسخ تلاوته ، مشتملاً على الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .

وجمع عثمان للقرآن كان نسخًا له على حرف واحد من الحروف السبعة ، حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد ، وحرف واحد يقرأون به دون ما عداه من الأحرف الستة الأخرى ، قال ابن التين وغيره : « الفرق بن جمع أبى بكر وجمع عثمان ، أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شىء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعًا فى موضع واحد ، فجمعه فى صحائف ، مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبى ﷺ ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللُّغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعضه ، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك ، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبًا لسوره ، واقتصر من سائر اللُّغات على لغة قريش ، محتجًا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسَّع فى قراءته بلغة غيرهم رفعًا للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت ، فاقتصر على لغة واحدة » ، وقال الحارث المحاسبى : « المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد ، على اختيار وقع بينه وبين مَن شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصِدِّيق» [١] .

وبهذا قطع عثمان دابر الفتنة ، وحسم مادة الخلاف ، وحصَّن القرآن من أن يتطرق إليه شىء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان .

وقد اختلف العلماء فى عدد المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق :

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ٥٩ - ٦٠) .

(أ) فقيل : كان عددها سبعة ، أُرسلت إلى : مكة ، والشام ، والبصرة ، والكوفة ، واليمن ، والبحرين ، والمدينة ، قال ابن أبى داود : سمعتُ أبا حاتم السجستانى يقول : كتب سبعة مصاحف ، فأرسل إليى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً .

(ب) وقيل : كان عددها أربعة ، العراقى ، والشامى ، والمصرى ، والمصحف الإمام ، أو الكوفى ، والبصرى ، والشامى ، والمصحف الإمام ، قال أبو عمرو الدانى فى المقنع [١] : « أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحدة : الكوفة ، والبصرة ، والشام ، وترك واحداً عنده » .

(جـ) وقيل : كان عددها خمسة ، وذهب السيوطى إلى أن هذا هو المشهور .

أما الصحف التى رُدَّت إلى حفصة فقد ظلت عندها حتى ماتت ، ثم غُسِلت غسلاً [٢] وقيل : أخذها مروان بن الحكم وأحرقها .

والمصاحف التى كتبها عثمان لا يكاد يوجد منها مصحف واحد اليوم ، والذى يُرْوَى عن ابن كثير [٣] فى كتابه « فضائل القرآن » أنه رأى واحداً منها بجامع دمشق بالشام ، فى رق يظنه من جلود الإبل ، ويُرْوَى أن هذا المصحف الشامى نُقِلَ إلى انجلترا بعد أن ظل فى حوزة قياصرة الروس فى دار الكتب فى لينينجراد فترة ، وقيل: إنه احترق فى مسجد دمشق سنة ١٣١٠ هجرية .

وجمع عثمان للقرآن هو المسمى بالجمع الثالث ، وكان سنة ٢٥ هجرية .

❊ ❊ ❊

---

(١) هو عثمان بن سعيد ، من أئمة القرَّاء ، له من الكتب : « التيسير فى القراءات السبع » ، و« المقنع فى رسم القرآن » ، و« المحكم فى نقط المصاحف » توفى سنة ٤٤٤ هجرية .

(٢) « تفسير الطبرى » (١/ ٦١) .

(٣) عماد الدين أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، صاحب « تفسير القرآن » ، و«البداية والنهاية فى التاريخ » ، توفى سنة ٧٧٤ هجرية .

شُبَه مردودة

هناك شُبَه يثيرها أهل الأهواء لتوهين الثقة بالقرآن ، والتشكيك فى دقة جمعه ، ونحن نورد أهمها ونرد عليها :

١ - قالوا : إن الآثار قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شىء لم يُكتب فى المصاحف التى بأيدينا اليوم :

(أ) عن عائشة قالت : « سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ فى المسجد فقال : يرحمه الله ، لقد أذكرنى كذا وكذا آية من سورة كذا » ، وفى رواية : « أسقطتهن من آية كذا وكذا » ، وفى رواية : « كنت أنسيتها » (١) .

ويجاب عن هذا بأن تذكير الرسول ﷺ بآية أو آيات قد أنسيها أو أسقطها نسيانًا لا يشكك فى جمع القرآن ، فإن الرواية التى جاء فيها التعبير بالإسقاط تفسرها الرواية الأخرى : « كنت أنسيتها » ، وهذا يدل على أن المراد بإسقاطها نسيانها ، كما يدل عليه لفظ : « أذكرنى » والنسيان جائز على رسول الله ﷺ فيما لا يخل بالتبليغ ، وكانت هذه الآيات قد حفظها رسول الله ، واستكتبها كُتَّاب الوحى ، وحفظها الصحابة فى صدورهم ، وبلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر ، فنسيان الرسول ﷺ لها بعد ذلك لا يؤثر فى دقة جمع القرآن ، وهذا هو غاية ما يدل عليه الحديث ، ولذا كانت قراءة هذا الرجل - وهو أحد الحفظة الذين يبلغ عددهم حد التواتر - مذكرة لرسول الله ﷺ : « لقد أذكرنى كذا وكذا آية » .

(ب) وقال تعالى فى سورة الأعلى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى * إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢) والاستثناء يدل على أن رسول الله ﷺ أُنسِيَ بعض الآيات .

ويُجاب عن ذلك بأن الله تعالى قد وعد رسوله بإقراء القرآن وحفظه ، وأمَّنه من النسيان فى قوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى ﴾ ولما كانت الآية توهم لزوم ذلك ، والله تعالى فاعل مختار ﴿ لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (٣) جاء الاستثناء

---

(١) الحديث فى الصحيحين بألفاظ متقاربة .

(٢) الأعلى : ٦ - ٧

(٣) الأنبياء : ٢٣

﴿ إِلا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ للدلالة على أن هذا الإخبار بإقراء الرسول القرآن وتأمينه من النسيان ليس خارجًا عن إرادته تعالى ، فإنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، يقول الشيخ محمد عبده فى تفسير الآية : « ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم ، ربما يوهم أن قدرة الله لا تتسع غيره ، وأن ذلك خارج عن إرادته جل شأنه ، جاء بالاستثناء فى قوله : ﴿ إِلا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئًا لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو نفى النسيان رأسًا ، وقالوا : إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه : « أنت سهيمى فيما أملك إلا ما شاء الله » لا يقصد استثناء شىء ، وهو من استعمال القلة فى معنى النفى ، وعلى ذلك جاء الاستثناء ، فى قوله تعالى فى سورة هود : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (١) أى غير مقطوع ، فالاستثناء فى مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد ، بكرم من الله وسعة جوده ، لا بتحتيم عليه وإيجاب ، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع .

وما ورد من أنه ﷺ نسى شيئًا كان يذكره ، فذلك إن صح ، فهو فى غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التى أُمِرَ بتبليغها ، وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدين ، التى جازت على عقول المغفلين ، فلوَّثوا بها ما طهَّره الله ، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشىء من ذلك » .

٢ - وقالوا : إن فى القرآن ما ليس منه ، واستدلوا على ذلك بما رُوِىَ من أن ابن مسعود أنكر أن المعوذتين من القرآن .

ويُجاب عن ذلك بأن ما نُقِلَ عن ابن مسعود رضى الله عنه لم يصح ، وهو مخالف لإجماع الأمة ، قال النووى فى شرح المهذب : « وأجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن مَن جحد شيئاً منها كفر ، وما نُقِلَ عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » ، وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع » .

---

(١) هود : ١٠٨

وعلى فرض صحته ، فالذى يُحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبى ﷺ فتوقف فى أمرهما .

وإنكار ابن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين من القرآن المتواتر .

ومثل هذا يُجاب به على ما قيل من أن مصحف ابن مسعود قد أُسقطت منه الفاتحة ، فإن الفاتحة هى أم القرآن ، ولا تخفى قرآنيتها على أحد .

٣ - ويزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان حرَّفوا القرآن ، وأسقطوا بعض آياته وسوره ، فحرَّفوا لفظ : ﴿ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (١) والأصل : « أئمة هى أزكى من أئمتكم » ، وأسقطوا من سورة « الأحزابَ » آيات فضائل أهل البيت وقد كانت فى طولها مثل سورة « الأنعام » ، وأسقطوا سورة الولاية بتمامها من القرآن .

ويُجاب عن ذلك بأن هذه الأقوال أباطيل لا سند لها ، ودعاوى لا بيِّنة عليها ، والكلام فيها حمق وسفاهة ، وقد تبرأ بعض علماء الشيعة من هذا السخف ، والمنقول عن علىّ رضى الله عنه الذى يدَّعون التشيع له ، يناقضه ، ويدل على انعقاد الإجماع بتواتر القرآن الذى بين دفتى المصحف ، فقد أُثِرَ عنه أنه قال فى جمع أبى بكر : « أعظم الناس أجرًا فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول مَن جمع كتاب الله » ، وقال فى جمع عثمان : « يا معشر الناس ، اتَّقوا الله ، وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم : حرَّاق مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ » ، وقال : « لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان » .

فهذا الذى أُثِرَ عن علىٍّ نفسه يقطع ألسنة أولئك المفترين الذين يزعمون نُصرته فيهرفون بما لا يعرفون تشيعًا له ، وهو منهم براء (٢) .

* * *

---

(١) النحل : ٩٢ .

(٢) انظر : « مناهل العرفان » (١/ ٤٦٤) .

ترتيب الآيات والسور

• ترتيب الآيات :

القرآن سور وآيات منها القصار والطوال ، والآية : هى الجملة من كلام الله المندرجة فى سورة من القرآن ، والسورة : هى الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع ، وترتيب الآيات فى القرآن الكريم توقيفى عن رسول الله ﷺ ، وحكى بعضهم الإجماع على ذلك : منهم : الزركشى فى « البرهان » ، وأبو جعفر ابن الزبير [١] فى « مناسباته » إذ يقول : « ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف بين المسلمين » وجزم السيوطى بذلك فقال : « الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فى ذلك » فقد كان جبريل يتنزل بالآيات على رسول الله ﷺ ويرشده إلى موضعها من السورة أو الآيات التى نزلت قبل ، فيأمر الرسول كتبة الوحى بكتابتها فى موضعها ويقول لهم : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يُذكر فيها كذا أو كذا ، أو ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، كما بلَّغها أصحابه كذلك ، عن عثمان بن أبى العاص قال : « كنتُ جالسًا عند رسول الله ﷺ إذ شَخَصَ ببصره ثم صوَّبه ، ثم قال: أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى ﴾ [٢] ... إلى آخرها» [٣].

ووقف عثمان فى جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها فى القرآن ، ولو كانت منسوخة الحكم ، لا يغيرها ، وهذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توقيفية ، عن ابن الزبير قال : « قلتُ لعثمان : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسى ، كان من النحاة الحفَّاظ ، توفى سنة ٨٠٧ هجرية .

(٢) النحل : ٩٠

(٣) أخرجه أحمد بإسناد حسن .

مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ (١) قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ؟ (٢) قال : « يابن أخى ، لا أغيِّر شيئاً من مكانه » (٣) .

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها ، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفيًا ، إذ لو جاز تغييرها لما صدقت عليها الأحاديث ، عن أبى الدرداء مرفوعًا : « مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال » ، وفى لفظ : « مَن قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ... » (٤) كما جاءت الأحاديث الدالة على آية بعينها فى موضعها ، عن عمر قال : « ما سألتُ النبى ﷺ عن شىء أكثر مما سألته عن الكَلالة ، حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء » (٥) .

وثبتت قراءة رسول الله ﷺ لسور عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة ، أو فى خطبة الجمعة ، كسورة البقرة وآل عمران والنساء ، وصح أنه قرأ « الأعراف » فى المغرب ، وأنه كان يقرأ فى صبح الجمعة : ﴿ الم * تَنْزِيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (السجدة) (٦) ، و﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ﴾ (الدهر) (٧) وكان يقرأ سورة « ق » فى الخطبة ، ويقرأ « الجمعة » ، و« المنافقون » فى صلاة الجمعة .

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل عام مرة فى رمضان ، وعارضه فى العام الأخير من حياته مرتين ، وكان ذلك العرض على الترتيب المعروف الآن .

وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو فى المصحف المتداول فى أيدينا توقيفيًا ، لا مراء فى ذلك ، قال السيوطى بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة : « تدل قراءته ﷺ لها بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفى وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبًا سمعوا النبى ﷺ يقرأ على خلافه ، فبلغ ذلك مبلغ التواتر » (٨) .

* * *

(١) البقرة : ٢٤٠

(٢) أى لماذا تثبتها بالكتابة أو تتركها مكتوبة وأنت تعلم أنها منسوخة ؟

(٣) أخرجه البخارى . (٤) رواه مسلم . (٥) رواه مسلم .

(٦) أى سورة السجدة . (٧) أى سورة الإنسان . (٨) انظر « الإتقان » (١/ ٦١) .

• ترتيب السور :

اختلف العلماء فى ترتيب السور :

(أ) فقيل : إنه توقيفى ، تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه ، فكان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتب السور ، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذى لدينا اليوم ، وهو ترتيب مصحف عثمان الذى لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع عليه .

ويؤيد هذا الرأى : أن رسول الله ﷺ قرأ بعض السور مرتبة فى صلاته ، روى ابن أبى شيبة : أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع المفصَّل فى ركعة ، وروى البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنهن من العتاق الأول ، وهن من تِلادى » فذكرها نسقًا كما استقر ترتيبها .

ورُوِىَ من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : « سمعتُ ربيعة يسأل : لِمَ قُدِّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة مكية ، وإنما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قُدِّمتا وألِّف القرآن على علم ممن ألَّفه به ، ثم قال : فهذا مما ينتهَى إليه ولا يُسأل عنه » (١) .

وقال ابن الحصار : « ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى ، كان رسول الله ﷺ يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف » (٢) .

(ب) وقيل : إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم فى الترتيب .

فمصحف « علىّ » كان مرتبًا على النزول ، أوله : اقرأ ، ثم المدثر ، ثم (ن) والقلم ، ثم المزمل وهكذا . . . إلى آخر المكى والمدنى .

---

(١) أخرجه ابن أشته فى كتاب « المصاحف » والمراد بالتأليف : الجمع .

(٢) انظر « الإتقان » (١/ ٦٢) .

وكان أول مصحف ابن مسعود : البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

وأول مصحف أُبَيّ : الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

وقد روى ابن عباس قال : « قلتُ لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ووضعتموها فى السبع الطوال ، فقال : كان رسولَ الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أنزل عليه شىء دعا بعض مَن يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يبيِّن لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ووضعتها فى السبع الطوال » (١) .

(جـ) وقيل : إن بعض السور ترتيبه توقيفى وبعضها باجتهاد الصحابة : حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور فى عهد النبوَّة ، فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصَّل فى حياته عليه الصلاة والسلام .

رُوِىَ أن رسول الله ﷺ قال : « اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران » (٢) .

ورُوِىَ « أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، فقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ و« المعوذتين » (٣) .

وقال ابن حجر : « ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيًا » واستدل على ذلك بحديث حذيفة الثقفى حيث جاء فيه : « فقال لنا رسول الله ﷺ : « طرأ علىّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه » ، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيف تُحَزِّبون القرآن ؟ قالوا : نُحَزِّبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ،

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم .

(٢) رواه مسلم . (٣) رواه البخارى .

obeikandi.com

وحزب المفصّل من « ق » حتى نختم [1] ، قال ابن حجر : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : ويحتمل أن الذى كان مرتبًا حينئذ حزب المفصّل خاصة بخلاف ما عداه » .

وإذا ناقشنا هذه الآراء الثلاثة يتبين لنا :

أن الرأى الثانى الذى يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يُعتمد عليه .

فاجتهاد بعض الصحابة فى ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختيارًا منهم قبل أن يُجمع القرآن جمعًا مرتبًا ، فلما جُمِعَ فى عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم ، ولو كان الترتيب اجتهاديا لتمسكوا بها .

وحديث سورتى : الأنفال والتوبة الذى رُوِىَ عن ابن عباس يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسى » الذى يذكره البخارى فى الضعفاء ، وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور . كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه ، ولذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد : « إنه حديث لا أصل له » .

وغاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط [2] .

أما الرأى الثالث الذى يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفى ، وبعضها ترتيبه اجتهادى ، فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفى ، أما القسم الاجتهادى فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادى ، إذ أن ثبوت التوقيفى بأدلته لا يعنى أن ما سواه اجتهادى ، مع أنه قليل جدًا .

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفى كترتيب الآيات ، قال أبو بكر

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود ، وانظر : « الإتقان » (١/ ٦٣) .

(٢) وحُكِىَ أن البسملة ثابتة لبراءة فى مصحف ابن مسعود ، وفى « المستدرك » للحاكم أن على بن أبى طالب سُئِلَ : لِمَ لَمْ تُكتب فى براءة : ﴿ بِسمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف .

ابن الأنبارى : « أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرَّقه فى بضع وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابًا لمستخبر ، ويوقف جبريل النبى ﷺ على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبى ﷺ . فمن قدَّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن » وقال الكرمانى فى « البرهان » : « ترتيب السور هكذا هو عند الله فى اللَّوح المحفوظ على هذا الترتيب ، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه . وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين . وكان آخر الآيات نزولاً : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ﴾ [(١)] فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدَّيْن » [(٢)] .

ومال السيوطى إلى ما ذهب إليه البيهقى قال : « كان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان » .

* * *

سور القرآن وآياته

سور القرآن أقسام أربعة : ١ - الطوال . ٢ - والمئين . ٣ - والمثانى . ٤ - والمفصل . نوجز أرجح الآراء فيها :

١ - **فالطوال** : سبع : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والسابعة ، قيل : هى الأنفال وبراءة معًا لعدم الفصل بينهما بالبسملة ، وقيل : هى يونس .

٢ - **والمئون** : التى تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

٣ - **والمثانى** : هى التى تليها فى عدد الآيات ، سميت بذلك لأنها تُثَنَّى فى القراءة وتُكَرَّر أكثر من الطوال والمئين .

٤ - **والمفصَّل** : قيل : من أول سورة « ق » ، وقيل : « من أول « الحجرات » ، وقيل غير ذلك - وأقسامه ثلاثة - طواله ، وأوساطه ، وقصاره .

---

(١) البقرة : ٢٨١ (٢) انظر : « الإتقان » (١/ ٦٢) .

فطواله : من « ق » أو « الحجرات » إلى « عم » أو « البروج » ، **وأوساطه** : من « عم » أو « البروج » إلى « الضحى » أو إلى « لم يكن » ، **وقصاره** : من « الضحى » ، أو « لم يكن » إلى آخر القرآن ، على خلاف فى ذلك .

وتسميته بالمفصَّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة .

وتعداد السور : مائة وأربع عشرة سورة ، وقيل : وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة .

أما تعداد الآيات : فستة آلاف ومائتا آية ، واختلفوا فيما زاد عن ذلك .

وأطول الآيات : آية الدَّيْن ، **وأطول السور** : سورة البقرة .

وهذه التجزئة تُيَسِّر على الناس الحفظ ، وتحملهم على الدراسة ، وتُشعر القارئ لسورة من السور بأنه قد أخذ قسطًا وافيًا وطائفة مستقلة من أصول دينه وأحكام شريعته .

* * *

الرسم العثمانى

سبق الحديث عن جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وقد اتبع زيد بن ثابت والثلاثة القرشيون معه طريقة خاصة فى الكتابة ارتضاها لهم عثمان ، ويسمى العلماء هذه الطريقة بـ « الرسم العثمانى للمصحف » نسبة إليه ، واختلف العلماء فى حكمه :

١ - فذهب بعضهم إلى أن هذا الرسم العثمانى للقرآن توقيفى يجب الأخذ به فى كتابة القرآن ، وبالغوا فى تقديسه ، ونسبوا التوقيف فيه إلى النبى ﷺ ، فذكروا أنه قال لمعاوية - أحد كتبة الوحى : « ألق الدواة ، وحَرِّف القلم ، وانصب الباء ، وفرّق السين ، ولا تُعَوِّر الميم ، وحسّن الله ، ومَدّ الرحمن ، وجَوِّد الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فإنه أذكر لك » ونقل ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال له : « ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبى وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدى إليها العقول ، وهو سر من الأسرار خَصَّ

الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية ، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز » .

والتمسوا لذلك الرسم أسرارًا تجعل للرسم العثمانى دلالة على معان خفية دقيقة ، كزيادة « الياء » فى كتابة كلمة « أيد » من قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ (١) إذ كتبت هكذا « بأييد » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التى بنى بها السماء ، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة ، وهى : زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى (٢) .

وهذا الرأى لم يرد فيه شيء عن رسول الله ﷺ حتى يكون الرسم توقيفيًا ، وإنما اصطلح الكتبة على هذا الرسم فى زمن عثمان برضا منه ، وجعل لهم ضابطًا لذلك بقوله للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم » وحين اختلفوا فى كتابة « التابوت » فقال زيد : « التابوه » ، وقال النفر القرشيون : « التابوت » وترافعوا إلى عثمان ، قال : « اكتبوا « التابوت » فإنما أُنْزِلَ القرآن على لسان قريش » .

٢ - وذهب كثير من العلماء إلى أن الرسم العثمانى ليس توقيفيًا عن النبى ﷺ ، ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان ، وتلقته الأمة بالقبول ، فجب التزامه والأخذ به ، ولا تجوز مخالفته ، قال أشهب : « سُئِلَ مالك : هل يُكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ قال : لا ، إلا على الكتبة الأولى » رواه أبو عمرو الدانى فى « المقنع » ثم قال : « ولا مخالف له من علماء الأمة » ، وقال فى موضع آخر : سُئِلَ مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن تُغَيَّر من المصحف إذا وُجدا فيه كذلك قال : لا ، قال أبو عمرو : يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللَّفظ نحو « أولوا » وقال الإمام أحمد : « تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك » (٣) .

---

(١) الذاريات : ٤٧ .

(٢) انظر : « مناهل العرفان » للزرقانى (٢/ ٣٧٠) وما بعدها .

(٣) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٦٧) ، و« البرهان » للزركشى (١/ ٣٧٩) .

٣ - وذهب جماعة إلى أن الرسم العثمانى اصطلاحى ، ولا مانع من مخالفته ! إذا اصطلح الناس على رسم خاص للإملاء وأصبح شائعًا بينهم . قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه « الانتصار » : « وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئًا ، أو لم يأخذ على كُتَّاب القرآن وخُطَّاط المصاحف رسمًا بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يُدْرَكَ إلا بالسمع والتوقيف ، وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وَحَدٍّ محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا فى نص السُّنَّة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية ، بل السُّنَّة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبيِّن لهم وجهًا معينًا ولا نهى أحدًا عن كتابته ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم مَن كان يكتب الكلمة على مخرج اللَّفظ ، ومنهم مَن كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح ، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز أن يُكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يُجعل الكلام على صورة الكاف ، وأن تُعَوَّج الألفات ، وأن يُكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يُكتب بالخطوط والهجاء المحدَثة ، وجاز أن يُكتب بين ذلك ، وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأثيم ولا تناكر ، عُلِمَ أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أُخِذَ عليهم فى القراءة ، والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دال على الكلمة مقيِّد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على آية صورة كانت .. وبالجملة فكل مَن ادَّعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأنَّى له ذلك » .

وانطلاقًا من هذا الرأى يدعو بعض الناس اليوم إلى كتابة القرآن الكريم وفق القواعد الإملائية الشائعة المصطلَح عليها ، حتى تسهل قراءته على القارئين من

الطلاب والدارسين ، ولا يشعر الطالب أثناء قراءته للقرآن باختلاف رسمه عن الرسم الإملائى الاصطلاحى الذى يدرسه .

والذى أراه أن الرأى الثانى هو الرأى الراجح ، وأنه يجب كتابة القرآن بالرسم العثمانى المعهود فى المصحف .

فهو الرسم الاصطلاحى الذى توارثته الأمة منذ عهد عثمان رضى الله عنه ، والحفاظ عليه ضمان قوى لصيانة القرآن من التغيير والتبديل فى حروفه ، ولو أبيحت كتابته بالاصطلاح الإملائى لكل عصر لأدى هذا إلى تغيير خط المصحف من عصر لآخر ، بل إن قواعد الإملاء نفسها تختلف فيها وجهات النظر فى العصر الواحد ، وتتفاوت فى بعض الكلمات من بلد لآخر .

واختلاف الخطوط الذى يذكره القاضى أبو بكر الباقلانى شىء والرسم الإملائى شىء آخر ، فاختلاف الخط تغير فى صورة الحرف لا فى رسم الكلمة .

وحجة تيسير القراءة على الطلاب والدارسين بانتفاء التعارض بين رسم القرآن والرسم الإملائى الاصطلاحى لا تكون مبررًا للتغيير الذى يؤدى إلى التهاون فى تحرى الدقة بكتابة القرآن .

والذى يعتاد القراءة فى المصحف يألف ذلك ويفهم الفوارق الإملائية بالإشارات الموضوعة على الكلمات ، والذين يمارسون هذا فى الحياة التعليمية أو مع أبنائهم يدركون أن الصعوبة التى توجد فى القراءة بالمصحف أول الأمر تتحوَّل بالمران بعد فترة قصيرة إلى سهولة تامة .

قال البيهقى فى شُعَب الإيمان : « مَن يكتب مصحفًا فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يُغَيِّر مما كتبوه شيئاً ، فإنهم كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم » [1] .

* * *

---

(١) انظر : « الإتقان » (١٦٧/٢) .

تحسين الرسم العثمانى

كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل ، اعتماداً على السليقة العربية السليمة التى لا تحتاج إلى الشكل بالحركات ولا إلى الإعجام بالنقط ، فلما تطرّق إلى اللِّسان العربى الفساد بكثرة الاختلاط أحس أُولو الأمر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل والنقط وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة .

واختلف العلماء فى أول جهد بُذِلَ فى ذلك السبيل .

فيرى كثير منهم أن أول مَن فعل ذلك أبو الأسود الدؤلى الذى يُنسب إليه وضع ضوابط للعربية بأمر علىّ بن أبى طالب ، ويُرْوَى فى ذلك أنه سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (١) فقرأها بجر اللام من كلمة « رسوله » فأفزع هذا اللَّحن أبا الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ، ثم ذهب إلى زياد والى البصرة ، وقال له : قد أجبتك إلى ما سألت ، وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فتباطأ فى الجواب حتى راعه هذا الحادث ، وهنا جد جده ، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين .

ويذكر السيوطى فى « الإتقان » أن أبا الأسود الدؤلى أول مَن فعل ذلك بأمر عبد الملك بن مروان لا بأمر زياد ، حيث ظل الناس يقرأون فى مصحف عثمان بضعًا وأربعين سنة ، حتى خلافة عبد الملك حين كثرت التصحيفات وانتشرت فى العراق ففكر الولاة فى النقط والتشكيل .

وهناك روايات أخرى تنسب هذا الفعل إلى آخرين ، منهم : الحسن البصرى ، ويحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم الليثى ، وأبو الأسود الدؤلى هو الذى اشتهر عنه ذلك ، وربما كان للآخرين المذكورين جهود أخرى بُذِلَت فى تحسين الرسم وتيسيره .

---

(١) التوبة : ٣

وقد تدرج تحسين رسم المصحف ، فكان الشكل فى الصدر الأول نقطًا ، فالفتحة نقطة على أول الحرف ، والضمة على آخره ، والكسرة تحت أوله .

ثم كان الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف ، وهو الذى أخرجه الخليل ، فالفتح شكلة مستطيلة فوق الحرف ، والكسر كذلك تحته ، والضم واو صغرى فوقه ، والتنوين زيادة مثلها ، وتُكتب الألف المحذوفة والمبدَّل منها فى محلها حمراء ، والهمزة المحذوفة تُكتب همزة بلا حرف حمراء أيضاً ، وعلى النون والتنوين قبل الباء علامة الإقلاب حمراء ، وقبل الحلق سكون ، وتعرى عند الإدغام والإخفاء ، ويسكن كل مسكن ، ويعرى المدغم ويشدَّد ما بعده إلا الطاء قبل التاء فيكتب عليها السكون نحو « فرطْت » (١) .

ثم كان القرن الثالث الهجرى فجاد رسم المصحف وتحسن ، وتنافس الناس فى اختيار الخطوط الجميلة وابتكار العلامات المميِّزة ، فجعلوا للحرف المشدَّد علامة كالقوس ، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها ، على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة .

ثم تدرج الناس بعد ذلك فى وضع أسماء السور وعدد الآيات ، والرموز التى تشير إلى رؤوس الآى ، وعلامات الوقف اللازم (م) والممنوع (لا) والجائز جوازًا مستوى الطرفين (ج) والجائز مع كون الوصل أولى (صلى) والجائز مع كون الوقف أولى (قلى) وتعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر (.·. .·.) والتجزئة ، والتحزيب ، إلى غير ذلك من وجوه التحسين .

وكان العلماء فى بداية الأمر يكرهون ذلك خوفًا من وقوع زيادة فى القرآن مستندين إلى قول ابن مسعود : « جرِّدُوا القرآن ولا تخلطوه بشىء » ، ويفرِّق بعضهم بين النقط الجائز ، والأعشار والفواتح التى لا تجوز ، قال الحليمى : « تُكره كتابة الأعشار والأخماس ، وأسماء السور وعدد الآيات فيه لقول ابن مسعود :

---

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٧١) .

« جرِّدوا القرآن » وأما النقط فيجوز ، لأنه ليس له صورة فيَتَوهَّم لأجلها ما ليس بقرآن قرآنًا ، وإنما هى دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها » .

ثم انتهى الأمر فى ذلك إلى الإباحة والاستحباب ، أخرج ابن أبى داود عن الحسن ، وابن سيرين أنهما قالا : « لا بأس بنقط المصاحف » ، وأخرج عن ربيعة ابن أبى عبد الرحمن : أنه قال : « لا بأس بشكله » ، وقال النووى : « نقط المصحف وشكله مستحب لأنه صيانة له من اللَّحن والتحريف » [(١)] .

وقد وصلت العناية بتحسين رسم المصحف اليوم ذروتها فى الخط العربى .

* * *

الفواصل ورؤوس الآى

تميز القرآن الكريم بمنهج فريد فى فواصله ورؤوس آياته ، ونعنى بالفاصلة : الكلام المنفصل مما بعده ، وقد يكون رأس آية وقد لا يكون ، وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابى ، سميت بذلك لأن الكلام ينفصل عندها .

ونعنى برأس الآية : نهايتها التى توضع بعدها علامة الفصل بين آية وآية ، ولهذا قالوا [(٢)] : « كل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية ، فالفاصلة تعم النوعين ، وتجمع الضربين » ، لأن رأس كل آية يفصل بينها وبين ما بعدها .

ومثل هذا قد يُسمى فى كلام الناس سجعًا على النحو المعروف فى علم البديع ، ولكن كثيرًا من العلماء [(٣)] لا يطلق هذا الوصف على القرآن الكريم سُمُوا به عن كلام الأدباء ، وعبارات الأنبياء ، وأسلوب البلغاء ، وفرَّقوا بين الفواصل والسجع، بأن الفواصل فى القرآن : هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة لذاتها .

أما السجع : فهو الذى يُقصد فى نفسه ثم يحيل المعنى عليه ، لأنه : موالاة

---

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٧٢) . (٢) انظر : « البرهان » للزركشى (١/ ٥٣) .

(٣) على رأس هؤلاء « الرمانى » فى كتاب « إعجاز القرآن » والقاضى أبو بكر الباقلانى فى كتاب « إعجاز القرآن » كذلك .

الكلام على وزن واحد ، ورد القاضى أبو بكر الباقلانى على مَن أثبت السجع فى القرآن فقال : « وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يُقال : هو سجع مُعْجِز لجاز لهم أن يقولوا : شِعر معجز ، وكيف ؟ والسجع مما كانت كهَّان العرب تألفه ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حُجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تخالف النبوَّات بخلاف الشِعر ، وما توَّهموا أنه سجع باطل [1] ، لأن مجيئه على صورته لا يقتضى كونه هو ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللَّفظ الذى يؤدى بالسجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى معنى السجع من القرآن ، لأن اللَّفظ وقع فيه تابعًا للمعنى ، وفرق بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظمًا دون اللَّفظ » [2] .

والذى أراه أنه إذا كان المراد بالسجع مراعاة موالاة الكلام على وزن واحد دون مراعاة المعنى فإن هذا تكلف ممقوت فى كلام الناس فضلاً عن كلام الله . أما إذا روعيت المعانى وجاء الاتفاق فى الوزن تابعًا لها دون تكلف فهذا ضرب من ضروب البلاغة ، قد يأتى فى القرآن كما يأتى فى غيره ، وإذا سمينا هذا فى القرآن بالفواصل دون السجع فذلك لتلافى إطلاق السجع على القرآن بالمعنى الأول .

والفواصل فى القرآن الكريم أنواع :

(أ) **فمنها الفواصل المتماثلة** : كقوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ *

---

(١) أقوى ما استدل به الذين يثبتون السجع فى القرآن أن موسى أفضل من هارون ، ولما كان السجع بالألف اللَّينة قيل فى موضع : ﴿ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (طه : ٧٠) ، ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (الشعراء : ٤٨) ، وأجيب بأن التقديم والتأخير لإعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدًا ، ليس للسجع .

(٢) « البرهان » : للزركشى (٥٨/١) .　　(٣) الطور : ١ - ٤

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (٢) .

(ب) **ومنها الفواصل المتقاربة فى الحروف** : كقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣) للتقارب بين الميم والنون فى المقطع ، وقوله : ﴿ ق ، وَالقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءَهُم مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٤) بتقارب مقطعى الدال والباء (٥) .

(جـ) **ومنها المتوازى** : وهو أن تتفق الكلمتان فى الوزن وحروف السجع ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (٦) .

(د) **ومنها المتوازن** : وهو أن يراعى فى مقاطع الكلام الوزن فقط كقوله تعالى : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (٧) .

وقد يراعَى فى الفواصل زيادة حرف كقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ (٨) بإلحاق ألف ، لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين فى الوقف ، فزيد على النون ألف لتساوى المقاطع ، وتناسب نهايات الفواصل ، أو حذف حرف ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (٩) بحذف الياء ، لأن مقاطع الفواصل السابقة واللاحقة بالراء ، أو تأخير ما حقه التقديم لنكتة بلاغية أخرى كتشويق النفس إلى الفاعل فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ (١٠) لأن الأصل فى الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول ، لكن أخِّرَ الفاعل هنا وهو « موسى » للنكتة البلاغية السابقة على رعاية الفاصلة .

* * *

---

(١) الفجر : ١ - ٤ (٢) التكوير : ١٥ - ١٨

(٣) الفاتحة : ٣ - ٤ (٤) سورة ق : ١ - ٢

(٥) هذا لا يسمى سجعًا عند القائلين بإطلاق السجع فى القرآن ، لأن السجع ما تماثلت حروفه .

(٦) الغاشية : ١٣ - ١٤ (٧) الغاشية : ١٥ - ١٦ (٨) الأحزاب : ١٠

(٩) الفجر : ٤ (١٠) طه : ٦٧

obeikandl.com